مفهوم تحليل الخطاب في النظريّة الخليليّة الحديثة

The Concept Of Discourse In New Khalilaine Theory

الدكتور : عتابي بن شرقي
جامعة البليدة 2 – لونيسي علي

مستخلص :

إذا كان اللّسانيون الغربيون قد اجتهدوا في وضع النّظريات التي عُنيت بتحليل الخطاب خدمة للفعل الترجمي ، فإنه ثمة نظرية لسانيّة عربية قديمة حديثة حاولت فهم حيثيات عملية الخطاب والتّخاطب وهي النّظرية الخليلية الحديثة التي ظهرت بوادرها الأولى سنة 1979 من طرف اللّسانيّ الجزائريّ عبد الرحمن الحاج صالح وهو عالم مشهور يجيد قراءة النّصوص اللّسانية العربية القديمة و متمكن من اللّسانيّات الغربية الحديثة ، و نظريته مستمدة من التراث العربيّ الأصيل أي من فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي و شيوخه وتلامذته ،يسعى رفقة مريديه إلى إعادة قراءة التّراث العربيّ من منظور علميّ باستغلال ما توصلت إليه اللّسانيات الحديثة واستخدام أحدث الوسائل والأجهزة التّكنولوجيّة .

إذن سنقف من خلال هذا البحث على مفهوم الخطاب و التّخاطب و علاقتهما بالوضع والاستعمال عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح باعتباره المؤسس الفعلي للنظرية الخليلية الحديثة وذلك من خلال أبحاثه خاصة كتابه الأخير "الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية" ؛ ثم سنفصل القول في دورة التخاطب عند العلماء العرب و الدور الذي يلعبه كل عنصر فيها ، لنقارن في الأخير – ولو بإيجاز–بين النظريات اللّسانية الغربية ونظرية العلماء العرب في تحليل الخطاب.

الكلمات المفاتيح

النظرية الخليلية الحديثة ، الوضع ، الاستعمال ، الخطاب ، التخاطب ، دورة التخاطب عند العرب .

Abstract :

The Algerian linguist Abderrahmane El hadj Salah has tried to understand the merits of the process of discourse and communication through the analysis of the concept of pragmatics and the terminology related to it. He adopted a scientific method to study the works of Sibawayh, el Jurjani and others.

This study has the following objectives:

Confirm that elements of pragmatics exist in the books belonging to the ancient heritage.

Define the concept of the term pragmatics and shed the light on its relationship with discourse analysis in the contemporary western linguistics and in the ancient Arabic linguistic course.

Key Words:

Abderrahmane El Hadj Salah, pragmatics, discourse analysis, the role of communication

مقدمة :

استمد تحليل الخطاب الكثير من منطلقاته و مفاهيمه و أطره النظرية و المنهجية من اللسانيات العامة بمختلف فروعها و نظرياتها و هو تخصص ذو مجال واسع يعنى بدراسة الاستعمال الفعلي للغة من قبل الناطقين بها يتخذ من الخطاب باعتباره وحدة لغوية تجاوزت الجملة موضوعا له و غايته هي تحليله وفك شفرته .إلاّ أن مصطلح "خطاب" لا يزال مبهمًا يحمل كثيرا من المدلولات المتباينة في الاستعمال و السبب يعود إلى كثرة المدارس التي عُنيت بتحليل الخطاب من جهة و التفاعلات التي حدثت بين مختلف العلوم اللسانية و عير اللسانية من جهة أخرى ، وسنورد فيما يلي بعض مدلولاته .

كما هو معلوم فإن أول من ميّز بين ثنائية اللغة و الكلام هو اللساني السويسري المشهور "فرديناند دي سوسور" من خلال كتابه محاضرات في اللسانيات العامة ، فإذا كانت اللغة عنده و عند أتباعه من البنويين هي الشكل الاجتماعي الذي يُجسد اللسان باعتباره نظاما ذهنيا من العلامات تجسيدا خاصا ضمن ما تواضعت عليه الجماعة البشرية فإن الكلام هو الإنجاز الفعلي الملموس الذي يُجسد نظام اللغة الاجتماعي تجسيدا فرديا و الكلام بمفهومه هذا يحمل نفس مفهوم الخطاب .

من المعلوم كذلك أن الدراسة اللسانية قد مرّت بمراحلَ إذ تجاوزت دراسة الدال و أصبحت تهتم بدراسة الجملة ، فهاهنا أصبح الخطاب يدل على ما تدل عليه الجملة ، بل أصبح يحمل مدلول الرسالة المنقولة من مرسِلٍ إلى مرسَل أليه ، و هذا ما وضحه اللساني المعزوف "بنفيست " حينما صرح أن الخطاب يستدعي وجود رسالة شفهية أو مكتوبة منقولة بين قطبي دورة التخاطب بواسطة دعامة معينة .

و خلاصة القول في هذا الشأن أن الخطاب هو شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية و السياسية والثقافية التي تُبْرَز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة و المخاطر في الوقت نفسه كما أوضح ذلك المفكر الفرنسي ميشال فوكو .

في ظل احتدام وجهات النظر للخطاب و تحليله عند اللسانيين الغربيين برزت للوجود نظرية عربية لا تقل أهمية و قيمة عن النظريات الغربية هي النظرية الخليلية الحديثة التي استمدت مبادئها من الفكر العربي القديم و حاولت أن تقارن بينه و بين مختلف النظريات الغربية ، و السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو :

هل اهتم العلماء العرب بالمخاطب و المخاطب وأحوال الخطاب و كيفية الاستدلال بها على غرض المتكلم ؟ هل تدّلنا عباراتهم على ذلك ؟ و هل فهمُ الخطاب عندهم يقتصر على معرفة المعنى الوضعي للألفاظ المركبة له ؟ أمّ أنه ثمّة دلائل أخرى تساعد على فهمه ؟ هذا ما ستُحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عنه .

01– التعريف بالنظرية الخليلة الحديثة :

إن النظرية الخليلية الحديثة هي نظرية لسانية عربية ؛ ظهرت بوادرها الأولى سنة 1979 من طرف اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح ، و استمدت مبادئها من التراث العربي الأصيل أي من فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي و شيوخه و تلامذته لذلك نُعتت بالخليلية تغليبا . يسعى أصحاب هذه النظرية إلى إعادة قراءة التراث العربي الأصيل من منظور علمي باستغلال ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة و استخدام أحدث الوسائل والأجهزة التكنولوجية لذلك و صفت بالحديثة فهي إذن همزة وصل بين التراث والحداثة.

02 – التعريف باللّساني عبد الرحمن الحاج صالح :

لا نريد في هذا المقام أن نطيل في الحديث عن هذا العالم الجزائري الذي بلغ صيته العالمية و أصبحت كتبه مطلوبة بكثرة لما تحمله من بحوث قيّمة و أفكار علمية أصيلة و أصبح معروفا في الأوساط العلمية بصاحب النظرية الخليلية الحديثة و صاحب مشروع الذخيرة اللغوية العربية الدولي ، بل سنقتصر على تعريفه كما ورد في الصفحات الأولى من كتبه .

ولد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بمدينة وهران سنة 1927 م . درس في مصر و في بوردو . تحصل على التبريز من باريس و دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة باريس – السّربون – كان أستاذا بجامعة الرباط سنة 1961 م إلى سنة 1962 و جامعة الجزائر بعد ذلك وصار مديرا لمعهد العلوم اللسانية بالجزائر ثم مديرا لمركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية و عينه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة2000 م و هو عضو في المجامع الآتية : دمشق و بغداد ز عمان و القاهرة .و يشرف على مشروع الذخيرة العربي الدولي [1].

مفهوم الخطاب والتخاطب في النظرية اللغوية العربية

سنبدأ حديثنا عن نظرة علماء اللغة العربية للخطاب و حيثياته و المصطلحات التي تدور في فلكه بالحديث عن المدونة العربية و الكيفية التي جمعت بها و الشروط التي وضعها العلماء لها حتى يتبين لنا علمية ومنهجهم الذي انفردوا به في التحري و التحقيق.

المدونة العربية وطريقة جمعها

القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الخالد و هو دستور المسلمين و منبع كل العلوم الشرعية و اللغوية من فقه وتفسير و نحو و بلاغة ، فقوانين اللغة العربية أُستنبطت من النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه و لا من خلفه ،كما أنه يمثل ذروة الفصاحة وقمّة البيان . فالنحاة الأوائل وضعوا نصب أعينهم خدمة كتاب الله بالوقوف على معناه ومعرفة إعرابه ، فغاية العلماء العرب من استنباط القواعد النحوية و الصرفية و الصوتية هي صيانة اللسان من الخطأ في تلاوة كلام الله عزّ و جلّ .

بعد أن تمّ للعلماء العرب نقط القرآن الكريم بدأت تظهر ملامح النحو العربي باعتباره مجموعة من القوانين التي تخضع لها اللغة العربية الفصيحة ، في هذا الوقت شرع بعض النحاة في جمع كلام العرب و اشترطوا أن يكون مأخوذا عن الفصحاء ممّن لم تتغير لغتهم ، و الكلام العربي المجموع عن هؤلاء الفصحاء على ضربين كما أوضحه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح : "كلام مسموع من فم العربي الفصيح كما ورد و ضرب آخر سموه الأصل في الكلام " [2].فليس كل ما هو موجود في الوضع يخرج بالضرورة إلى الاستعمال ،لذلك للكلام أصلان : أصل في الوضع و أصل في الاستعمال.

إن الدلالة على المعاني لا تقتصر على اللفظ في ظاهره فحسب بل تتعداها إلى الأحوال و الظروف المصاحبة للحدث الكلامي ، و قد اهتم النحاة العرب بهذه الأحوال و لم يقتصروا في تحليلهم للخطاب على النص المسموع فقط .و قبل الولوج في المفاهيم المتعلقة بتحليل الخطاب في النظرية اللسانية العربية و دورة التخاطب عند العلماء العرب و مكوناتها يجدر بنا أن نتحدث عن مصطلحين مهمين يشكلان القاعدة التي بُنيت عليها العديد من التصورات اللسانية هما الوضع و الاستعمال .

أ – مفهوم الوضع و الاستعمال

أخرج العلماء العرب نظرية لسانية متماسكة الأجزاء متكاملة البناء بُنيت على مبدأ أن اللغة نظام متجانس من العلامات المتواضع عليها العرب الفصحاء ، و لكنهم لاحظوا أن هذا التواضع قد يصيبه تغيرات أثناء الاستعمال الفعلي للغة ، هذا الذي جعلهم يدرسونها – اللّغة – من جانبين :

الأول باعتبارها نظام متجانس من الأبنية في المستوى الإفرادي و التركيبي ، و الثاني باعتبارها وسيلة تبليغ و تواصل و تعبير عن الأغراض التي يريدها المتكلم أي أنهم نظروا إليها من حيث هي كيان ذهني تواضعت عليه الجماعة البشرية المتجانسة فهي من هذه الحيثية مجموعة من القوانين الذهنية المضبوطة التي يوظفها المتكلم الفصيح دون شعور منه ، أما الجانب الثاني من اللغة فهو من حيث استعمالاتها في واقع الخطاب والتغيرات التي تطرأ عليها ، وبذلك شاع في كتب النحاة بعد القرن الرابع الهجري بخاصة مصطلحان مهمان هما الاستعمال الذي يقابله مصطلح الوضع .

ب – مفهوم الوضع في اللسانيات العربية

يعتبر كتاب سيبويه أقدم وأنضج كتاب في النحو العربي لاحتوائه على مفاتيح هذا العلم ، فصاحبه هو الوريث الشرعي لعلم المتقدمين خاصة الخليل بن أحمد الفراهيدي و الكتاب هو زبدة أفكار علماء كُثر زاد ها سيبويه تحليلا علميا وتبويبا منهجيا فعدّ كتابه بذلك قرآن النحو .

استعمل سيبويه لفظة وضع بصيغتي الفعل و المصدر الميمي المشتقين من المادة وضع/ يضع و هو في الغالب الأعم يستعمله بمعنى المكان ومن ذلك قوله : "الشعر وضع للغناء و الترنم" و قوله "الكلام الذي لم يوضع للغناء"[3] فمن هذا الكلام يتضح أن معنى وضع "هو إثبات شيء لشيء أو نفي هذا الإثبات "[4]

إن المتمعن في عبارات سيبويه التي ذُكر فيها لفظة وضع و مشتقاتها يدرك أنه يؤمن أن ألفاظ اللغة هي من وضع واضع حكيم –ولا نريد هنا أن نخوض في قضية نشأة اللغة و ما دار حولها من خلاف – ، فمعنى الوضع عنده هو تخصيص لفظ معين لمعنى معين من طرف جماعة لغوية معينة .

هذا ، و قد ذكر النحاة أفعال أخرى تقترب في دلالتها من الفعل وضع كجعل و خلق و عمل و صيّر له ، وخلاصة القول أن النحاة وعلى رأسهم سيبويه استعملوا الفعل وضع بمعناه الأصلي "و هو تخصيص الشيء للشيء ينطبق على تخصيص اللفظ للمعنى"[5] و أول نحوي استعمل مصدر الفعل وضع هو ابن السراج و كان يعني بالوضع النظام العام الذي تخضع له اللغة أي قوانينها العامة .

كما استعمل النحاة الفعل وضع بمعنى آخر و هو" جعل الكلام على صورة معينة و تركيب معين"[6] و في ذلك يقول سيبويه : "لأنك إنما تسألهم على ما وضع عليه المتكلم كلامه "[7] ، فالوضع هاهنا هو الوضع النحوي بمعنى الطريقة التي يُرتب بها المتكلم ألفاظه و هنا يتداخل مفهوم الوضع مع مفهوم الموضع الذي هو موقع اعتباري في التركيب والذي به تفسر الكثير من المعاني النحوية .

كما وظف بعض النحاة مصطلح الوضع بصيغة الجمع فقالوا أوضاع اللغة في مقابل أوضاع النحو و مقصودهم بأوضاع اللغة دلائلها أما أوضاع النحو فهي تلك الألفاظ التي كان يستعملها النحاة.

وأول نحوي عرّف الوضع اللغوي هو الرضي الإستربادي حينما صرح أن "المقصود بوضع اللفظ جعله أولا لمعنى من المعاني مع قصد أن يصير متواطأ عليه بين قوم "[8].

فالوضع اللغوي عند الرضي هو تخصيص لفظ معين لمعني معين مع اتفاق الجماعة اللغوية على ذلك التخصيص.

إن الحديث عن الوضع يقودنا للحديث عن ثنائية الكلام و الأصل فيه أو ما سماه بعض النحاة بالوضع في مقابل الكلام فالمنظرون الأوائل لعلوم العربية ميّزوا بين الكلام المستعمل بالفعل و الأصل الذي يجب أن يكون عليه ، ذلك أن المتكلم يضطر أن يحذف ويستبدل وحدة مكان الأخرى ويقدم و يؤخر لدواع تفرضها أحوال التخاطب كمنزلة المخاطب و مكانته الاجتماعية و ثقافته و في ذلك يقول إمام النحاة: "اعلم أنهم يحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في الكلام أن يستعمل ، حتى يصير ساقطا " [9].

تجدر الإشارة أن سيبويه لم يُعنى بتحديد مفهوم الكلام تحديدا دقيقا – كما لم يعنى بتحديد كثير من المصطلحات والسبب في ذلك يرجع برأينا إلى أن كتابه هو كتاب تنظير وليس كتاب تعليم – بل استعمله في أغلب الأحيان بمعنى الخطاب بدليل أنه كان كُلما ذكر لفظة كلام ذكر معها المخاطب و المخاطب .

مفهوم الكلام

شغلت ثنائية اللغة و الكلام فكر اللسانيين منذ القديم و اختلفت الأراء فيهما إذ يعتبر مصطلح الكلام من المصطلحات المفاتيح في الدرس اللساني عموما و النحوي خصوصا ، و هو يرتبط بجملة من المفاهيم النحوية التي هي عماد تفسير الكثير من الظواهر اللغوية فضبط المعاني التي يحملها مصطلح الكلام هو الذي سيحدد لنا العديد من المفاهيم القريبة منه و ستُرسم من خلال تعريفه الحدود بينه و بين المصطلحات القريبة منه.

اعتنى النحاة العرب بتفسير الكلام و ظواهرِه و ضروبِه في أول كتاب وصل إلينا و هو كتاب سيبويه . فكثيرا ما نجد النحاة العرب يستعملون لفظة كلام في تحليلاتهم و استدلالاتهم وسنقف على مقصودهم منه فيما يلي :

يحمل مصطلح الكلام في الدرس النحوي العربي القديم ثلاثة دلالات أساسية.

فإذا نظرنا إليه من حيث كونُه مصدر و كاسم جنس فإننا نجده يحمل معنى يقترب من معنى اللسان أي هو طريقة كل قوم في التعبير عن مقاصدهم و في ذلك يقول سيبويه "لم تقع في كلامهم إلا معرفة على حد ما كانت في كلام العجم "[10]. كما ترددت عبارة النحاة المشهورة في كتبهم "هذا من كلام العرب" وغيرها من العبارات المشابهة لها فالظاهر من عباراتهم أن الكلام هو الكيفية التي ينفرد بها كل قوم في التعبير أو هو "الطريقة الخاصة بقوم في الكلام" [11].

أما المدلول الثاني للكلام فهو الخطاب ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن هذا المعنى هو الأكثر استعمالا من طرف النحاة ويقصدون بالخطاب "الكلام الحاصل بالفعل بين المتخاطبين" [12].

أما المعني الثالث للكلام فنستنتجه من قول ابن جني حينما عرفه بأنه : «كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه نحو : زيد أخوك وقام محمد و ضرب سعيد و في الدار أبوك وصه و مه و أف و أواه «[13] فمقصوده بالكلام هاهنا هو ما تكون من أصوات تامة لتفيد معنى و

سيُطلق على هذا المعنى الذي قصده ابن جني الجملة المفيدة فيما بعد وهي كل وحدة مستقلة مستغنية عن غيرها عند سيبويه أي كل وحدة خطابية يحسن السكوت عليها .

هذا عن المدلولات التي يحملها مصطلح كلام وسنتحدث الآن عن شروط سلامته التي استنبطها النحاة العرب بعد الاستقراء المنتظم للنص القرآني و هي شروط تتعلق بالصياغة اللفظية للكلم و للكلام أي بنية الكلمة وهي مستقلة عن التراكيب و هو مجال يعنى بدراسته علم الصرف و كذا القوانين العامة التي يخضع لها التركيب وهو ميدان علم النحو هذا من جهة وترجع سلامته من جهة ثانية إلى الظواهر النطقية و هو ميدان يهتم بدراسته علم الصوت و الأساس الذي اعتمده النحاة في ذلك هو السماع عن العرب الفصحاء أي "ما سمع من كلامهم وثبت في استعمالهم و ما كان على قياس كلامهم "[14] ، و هنا يبرز مصطلحان مهمّان هما السماع والقياس أو النقل في مقابل العقل ولكن المقام لا يسمح بالحديث عنها .

و عن شروط سلامة الكلام اللغوي نردف فنقول : إن الكلم العربي يخضع لأوزان معينة و هذه الأوزان لها دلالاتها أي أن لكل وزن معنى معين و عليه فإن توليد كلمة جديدة يحتم النظر في الوزن التي ستخضع له لأن الوزن له دلالته رغم أنه مثال مجرد ليس إلاّ .

مفهوم الخطاب في النظرية العربية :

يعتقد كثير من الباحثين أن تحليل الخطاب هو ميدان حديث النشأة في الدرس اللساني العربي ، و الحقيقة غير ذلك إذ أن علماء اللغة العربية من نحويين و بلاغيين و أصوليين قد اهتموا بتحليل الخطاب و فكّ شِفرته ، وسنحاول الآن الوقوف على المعاني التي يحملها لفظ الخطاب عند بعضهم .

إذا كانت اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم أي أن الوظيفة الأساسية لها هي التبليغ والتواصل فـــ" إن وظيفة التخاطب الأساسية هي الإعلام و البيان المتبادل"[15]

لا شك أن الإنسان اجتماعي بطبعه محتاج إلى غيره ، و لا سبيل إلى فهم ما يختلج في نفوس الآخرين إلاّ بالتخاطب الذي يعرفه الجاحظ بأنه : "البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم ومعبرا عن حقائق حاجاتهم ولم يرض لهم من البيان لصنف واحد "[16].

فالإنسان بفطرته التي فطره الله عليها يلجأ إلى الكلام للتعبير عن أغراضه يقول الزجاجي : "إن الله عزّ و جلّ إنما جعل الكلام ليعبّر به العباد عما هجس في نفوسهم و خاطب به بعضهم بما في ضمائرهم مما لا يوقف عليه بإشارة و لا إيماء "[17]. فالخطاب إذن هو "الكلام الحاصل بالفعل بين المتخاطبين"[18] .

يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح "فالخطاب المبلِّغ هو كل هذه الأدلة التي تتدخل في وقت واحد،كما قلنا أو في أوقات متقاربة لتكوّن الخطاب و ليس هو اللفظ المسموع منه وحده"[19] .

تبين مما سبق أن لفظة كلام تحمل معان كثيرة بينما لفظة الخطاب فلها مجال دلالي ضيق .

و الملاحظ على المنظّرين للعلوم العربية أنهم لم يقتصروا في عملية تأويلهم للخطاب على اللفظ وحده بل اعتمدوا على جملة من الأدلة المصاحبة له ، و سنفصل القول في ذلك أثناء حديثنا عن أنواع القرائن التي يمكننا من خلالها فهم المعنى الذي يريده المخاطب.

اهتمام العلماء العرب بمكونات التخاطب و دورها :

اهتم النحاة العرب بحيثيات عملية التخاطب و لم يقتصروا في تفسيراتهم على معرفة دلالة الألفاظ فقط ، بل نظروا إلى كل العوامل المصاحبة له و القرائن المساعدة على فهم معناه ، و في هذا يقول سيبويه متحدثا عن شروط الإخبار «كان زيد حليما و كان حليما زيدٌ. "كان زيدٌ " فقد ابتدأت بما هو معروف عنده فإنما ينتظر الخبر ، فإذا قلت "حليما " فقد أعلمته مثل ما علمت ...."[20] وقال في موضع آخر "حذفوا في هذه الأشياء استغناءً بما يرون من الحال و بما جرى من الذكر "[21] فهذه الأمثلة وغيرها تثبت أن النحاة كانوا يولون المتكلم و المخاطب أهمية كبيرة في تفسير الكلام ومعرفة الغرض من الخطاب

لذلك فعملية إنتاج الخطاب في نظر العلماء العرب تتدخل فيها عناصر خارجة عن اللفظ المنطوق وهي جملة "الأدلة التي تقترن بها عملية التلفظ بالكلام "[22] فسيبويه و أتباعه لا يقتصرون في تفسيراتهم للكلام على طريقة صياغته فقط بل ينظرون في دور كل من المخاطب و المتكلم "و بصفة خاصة إلى كيفية حصول التفاهم بينهما لا بالاعتماد فقط على ما يدل عليه الكلام بلفظه وحده "[23]

و عليه لا يمكن البتة فهم الغرض الحقيقي الذي يريده المتكلم بالاقتصار على كلامه المنطوق و السبب في ذلك أن كثيرا من الألفاظ حمّالة أوجه فكثير من الألفاظ في أي لغة كانت لها حقل واسع من المدلولات وبالتالي لا يمكن فهمهم (الألفاظ) إلاّ بالعودة أدلة أخرى غير ملفوظة ، و من جملة هذه الأدلة دلالة الحال و الكيفية التي يستدل بها المخاطب في تأويل الخطاب حينما يوظف المعلومات المخزنة في ذاكرته .

هذا ، و قد اهتم النحاة العرب بهذه الدلائل غير اللفظية في تحليلاتهم و استدلالاتهم حينما كانوا يتناولون الجانب المستعمل من اللغة .

استعمل النحاة العرب مجموعة من الألفاظ للتعبير على كل ما يخص الخطاب و من الألفاظ الأكثر تداولا الكلام و المتكلم والمخاطب و قد سبق و أن تحدثنا عن مفهوم الكلام فما مقصودهم من المتكلم و المخاطب ؟

إن النصوص التي وردت فيها لفظتي المتكلم و المخاطب تبين أن المتكلم لا يخرج عن كونه ذلك الشخص الذي يقوم بإنجاز الخطاب فيوجهه للمخاطب في ظروف معينة . أما المخاطب فهو كل من يقوم بعملية فهم و تأويل الكلام الموجه إليه من المخاطَب .

دورة التخاطب عند العرب

اللسانيات هي الدراسة العلمية الموضوعية للغة البشرية المعتمدة على منهج معين في دراسة اللغة التي هي موضوع اللسانيات ، واللغة باعتبارها أداة تبليغ و تواصل بين الشعوب لا تُدرس إلّا من خلال التخاطب الحاصل بينهم .

و لقد اعتنى اللسانيون المحدثون بما سمي بدورة التخاطب و وظائف اللغة ، و الدراسة التي لاقت رواجا كبيرا في الغرب هي دراسة اللساني الروسي المعروف رومان جاكبسون . يمكننا اعتبار دورة التخاطب علاقة قائمة بين مرسل و مرسل إليه يستغلان نظاما مشتركا بينهما في تأدية رسالة معية بواسطة قناة ناقلة ، و سُميت دورة التخاطب بالدورة لأن المرسِل يمكن أن يتحول إلى مرسَل إليه و العكس ، و هذا الذي أشار إليه علماء اللغة العربية في دراساتهم ، وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار : "المخاطبة مفاعلة و لا تستعمل إلاّ بين متخاطبين يصح كل واحد منهما أن يخاطب ابتداءً و أن يجيب صاحبَه عن خطابه "[24] فالتخاطب هو عملية تفاعل بين متكلم و مستقبل و هما قطبا عملية التواصل .

إن الحديث عن دورة التخاطب وا لأفعال المصاحبة للتخاطب و القرائن الدالة عليه و المساعدة على فهمه كل ذلك فهمه العلماء العرب بعمق ، فدورة التخاطب عندهم هي عبارة عن شبكة من الدلائل المنسجمة و المتناسقة و ليس فقط المخاطب و المخاطب والوضع المشترك بينهما.

01 – المخاطِب وهو المنتج للخطاب الذي يريد أن يوصله للمخَاطب أو للمخَاطبين .

02 –المخَاطَب و هو القطب المقبل على المخاطِب بالاستماع و المفسر للخطاب الموجه له ، و يمكنه أن يتحول من متلق للخطاب إلى منتج له ، ومن شروطه أن يشترك مع المتكلم في الوضع اللغوي المستعمل و أن تكون له معلومات سابقة عن حيثيات الخطاب الموجه له تساعده في فهمه .

03 – الوضع بمعنى اللغة التي يشترك فيها قطبي دورة التخاطب

والرسم التالي يبين دورة التخاطب عند العرب و العناصر المشكلة لها .

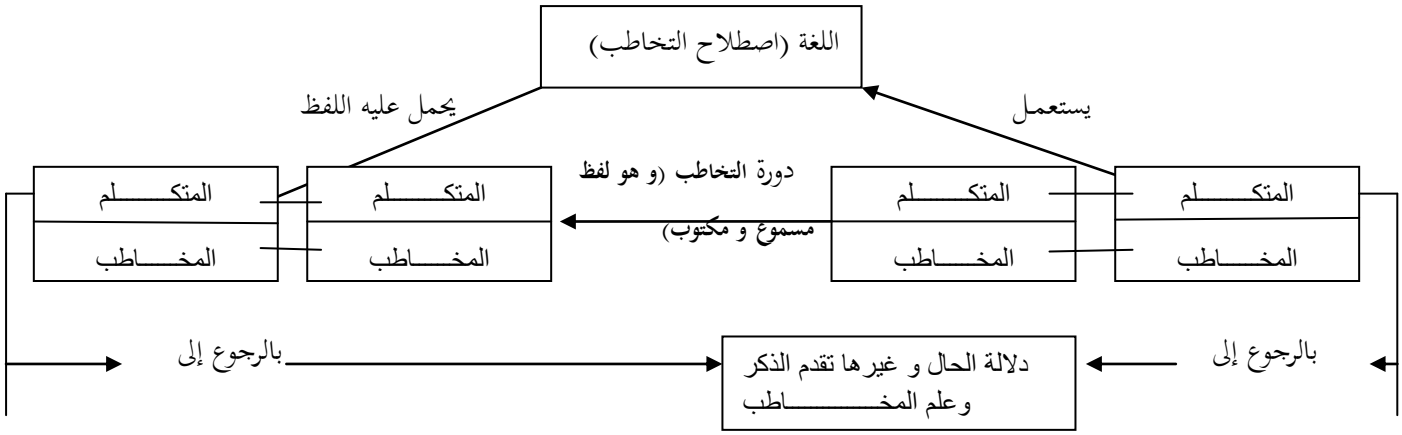

– دورة التخاطب عند العرب –

قرائن التخاطب

ليست عملية التخاطب هي الكلام الموجه من مرسل إلى مرسل إليه عبر دعامة مادية ناقلة له بأعلى مردود وبأقل تشويش فحسب ، بل من الصعوبة بمكان فهم المغزى المراد من الخطاب بدقة ما لم تُعرف المعطيات المحيطة به و الخلفيات الملابسة له و الدلائل المساعدة على فكّ شِفرته ، و من جملة هذه الدلائل نذكر :

01– دلالة الحال : تعتبر هذه القرينة من أهم مكونات التخاطب إذ أنها هي الوسيلة الوحيدة التي ندرك من خلالها مقصود المتكلم خاصة في حالة اتساعه في الكلام و الحال هي الهيئة التي هي عليها كل من المتكلم و المخاطَب أو المحدث عنه وحده أو معهما أي كل ما يمكن مشاهدته بحاسة العين أو إدراكه بالعقل عند تبادل عملية التخاطب بينهما ، و قد استعمل النحاة العرب كثيرا من القرائن في التحليل اللغوي للنصوص و من ذلك تفسير سيبويه لبيت الشاعر أبي دؤاد .

أكلّ امريء تحسبين امرأً ونارٍ توقد بالليل ناراً

بقوله : "فاستغنيت عن تثنية كل لذكر أياه في أول الكلام و لقلة التباسه على المخاطب "[25].

ويمكن حصر القرائن التي يُعرف بها مقصود المتكلم في الآتي :

«1 – ما يرى المخاطب من الحال ،وقد سبق لنا تعريفها

2 – ما جرى من الذكر أو ما كان قبل ذلك من الكلام و هو الكلام الدي يسبق الخاب المراد تحليله.

3 – علم المخاطَب السابق"[26] أي كل ما يتعلق بالمعلومات المخزّنة في ذهن المخاطب والذي يوظفها أثناء عملية التحليلي والفهو و أثناء عملية التركيب و الإنتاج .

و يضاف إلى هده القرائن قرائن أخرى كعلم المخاطب و هو يتمثل في ملكته اللسانية المكتسبة بالتجربة أي جملة المعارف التي يمتلكها المتحدث و المتعلقة بطرق نظم الكلام و معرفة موقع كل كلمة في التركيب ، هذه المعارف يوظفها ليس في إنتاج الكلام فقط بل في فهمه كذلك حينما يصبح متلقيا له، فمعرفتة لمواضع الحذف و الإضمار و التقديم و التأخير و الإيجاز والإطناب من شأنها أن تزيد في مردودية عملية التواصل .

و الملاحظ أن العلماء العرب قد اعتنوا بعنصر مهمّ في دراساتهم و تحليلاتهم للخطاب وأوّلوه عناية كبيرة نظرا لدوره البارز في فهم الخطاب و هو عنصر المقام ، وقد عُرفوا بقولهم لكل مقام مقال ، حيث إن المتكلم يراعى أثناء إنتاجه للكلام «منزلة المخاطب في المجتمع الضيق منه و الواسع "[27] .

و قد أفاض العلماء العرب في الحديث عن المقام و من ذلك قول الجاحظ "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما...ولكل مقام مقال "[28] فالمقام إذن يحتم على المتحدث أن يتخير الألفاظ المناسبة لطبيعة المتحدث معه و منزلته الاجتماعية وثقافته و كل ما يحيط بشخصيته .

والجدير بالذكر أن هذه القرائن المتكونة من المعارف المختزنة التي يوظفها المتكلم في عملية إنتاج وفهم الكلام و كذا دلالة الحال وتقدم الذكر بالإضافة إلى عنصر المقام تشكل مجتمعة «شبكة من القنوات الدلالية تتدخل كل واحدة منها في وقت واحد وتقترن بعضها ببعض مع الكلام الملفوظ لتبليغ الغرض لأنه الدليل الأولي الأصلي "[29]

وخلاصة القول أن دورة التخاطب عند العلماء العرب هي عبارة عن شبكة من الدلائل المنسجمة و المتناسقة وليس فقط المخاطِب و المخاطَب و الوضع المشترك بينهما و أن معرفة هذه القرائن و الدور الذي تلعبه في عملية التواصل يتمُ عن طريق العقل .

بعد هذا العرض الذي حاولنا أن نختصر فيه قدر الإمكان ها نحن – أيها القاريء الكريم – نصل إلى خاتمته فنقول : إن العلماء العرب قد اهتموا اهتماما كبيرا بتحليل الخطاب و العناصر المشكلة له و الدلائل المساعدة على فكّ شِفرته ، والدليل على ذلك كثرة العبارات التي استعملوا فيها ألفاظ تدور في فلكه كالمتكلم و المخاطَب و الوضع و الاستعمال و الكلام والمتحدث له و غير ذلك ، و كانت غايتهم في ذلك هو الفهم الدقيق لمقصود المتكلم و لا يكون ذلك إلاّ بمعرفة **قرائن** التخاطب التي تحدثنا عنها و معرفة المقام الذي أُنتج فيه الخطاب و من جملة النتائج التي استخلصناها من هذا البحث نذكر مايلي :

01 – إن العلماء العرب ميزوا تمييزا حاسما بين اللغة و بين كيفية استعمالها في التخاطب ، فاللغة عندهم نظام متجانس من القوانين والتي يصيبها تغيرات في مفرداتها و تراكيبها أثناء الاستعمال .

02 – يُعتبر العلماء العرب هم أول من ميزوا بين اللغة كوضع و اللغة كاستعمال فاللغة عندهم هي نظام متجانس من الأدلة ، أي أنها مجموعة من البنى الخاضعة لقوانين مضبوطة في كل المستويات و الأداة المنهجية التي استعملوها لاكتشاف هذا التجانس بين هذه البُنى هي القياس للوصول ليس للصفات الذاتية لكل وحدة لغوية كما هو الحال عند الغربيين بل لاكتشاف التشابه من حيث البناء .

03 – إن التمييز الصارم بين اللغة كنظام و اللغة كاستعمال تعود جذوره في الدراسات الغربية إلى اللساني الشهير – دو سوسور– حين ميّز بين اللغة و الكلام و تفطن للفوارق الموجودة بينهما إلاّ أنه أقصى الكلام من الدراسة اللسانية عكس العلماء العرب الذين اعتنوا باللغة كنظام ذهني متواضع عليه و الكلام الذي هو استعمال للغة في واقع الخطاب .

04 – إن استعمال اللغة يخضع للجماعة أي مجموعة الأفراد الناطقين بها و هنا يبرز مفهوم اللغة كنظام من الأدلة المتواضع عليه و الاستعمال الحقيقي لها الذي يظهر القوانين العامة التي تخضع لها.

05 – إن اللفظ يحمل أكثر من معنى مما يحتم على محلل الخطاب أن ينظر في أشياء أخرى غير اللفظ و هذا ما فعله المنّظرون لعلوم اللغة العربية إذ أن فهم الخطاب عندهم لا يقتصر على الدلالة الوضعية للألفاظ بل يتعداه إلى فهم دلالة الحال و دلالة علم المخاطب بالإضافة إلى الدلائل العقلية .

06 – إذا كان للوضع قوانين تحكمه فإن للتخاطب قوانين خاصة به وقرائن تعين على فهمه كأحوال المتكلم و المخاطب وهي قوانين مستقلة تماما عن قوانين اللغة .

07 – إن التخاطب عند علماء اللغة العربية هو تفاعل بين متكلم و مخاطَب في زمن معين و مكان معين .

08– إن عبارات العلماء العرب تدلنا أنهم فهموا جيدا سير عملية التخاطب و شروطها و الدور الذي يلعبه كل مكون من مكوناتها فهؤلاء العلماء أدركوا أن المتلقي يشارك بفعالية في التخاطب لأنه سيتبادل الدور مع المخاطب كما أنه سيستعمل معلوماته المخزنة في ذاكرته لفهم مراد المتكلم .

مصادر و مراجع البحث :

الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق عبد السّلام هارون ، القاهرة ،1984 م
الجاحظ ، الحيوان ،تحقيق عبد السلام هارون ،القاهرة ،1940.1947
ابن جني ، الخصائص ،ج 01 ، تحقيق محمّد علي النجار ، القاهرة ، 1386 – 1389 .
الرضي الأستراباذي ، شرح الكافية ، استطنبول ، 1275 م
الزجاجي ،الإيضاح في علل النحو ، تحقيق مازن المبارك ، القاهرة
سيبويه ، الكتاب ، طبعة بولاق ، 1316- 1317
عبد الرحمن الحاج صالح ، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، الجزء الأول ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية .
عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية
القاضي عبد الجبار ، المغني ، إعجاز القرآن ،تحقيق أمين الخولي ، القاهرة ، 1960.

الهوامش:

[1] أنظر كتاب بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، الجزء الأول ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية .

[2] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ، ص08.

[3] سيبويه ، الكتاب ، طبعة بولاق ، 1316- 1317 ، ج02 ، ص299 .

[4] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 21

[5] المرجع نفسه ، ص22

[6] نفس المرجع ، ص 22

[7] سيبويه ، الكتاب ، ج 01 ، ص401

[8] الرضي الأستراباذي ، شرح الكافية ، استطنبول ، 1275 م ،ج 01 ، ص 03.

[9] سيبويه ، الكتاب ،ج01.ص08 .

[10] المرجع نفسه ، ج02 ، ص19

[11] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص12.

[12] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص12 .

[13] ابن جني ، الخصائص ، ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، 1386 – 1389 ، ج 01 ، ص17

[14] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 09.

[15] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 49 .

[16] الحيوان ، ج01 ، ص44 - 45

[17] الزجاجي ،الإيضاح في علل النحو ، تحقيق مازن المبارك ، القاهرة ، 1391هـ ، ص 42 .

[18] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 12 .

[19] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 60 .

[20] سيبويه ،الكتاب ،.ص43 .

[21] المرجع نفسه،، ص136 . .

[22] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 44 .

[23] عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 44

[24] القاضي عبد الجبار ، المغني ،إعجاز القرآن ، تحقيق أمين الخولي ، القاهرة ،1960 ، ج 07 ، ص 29

[25] سيبويه ، الكتاب ،ج01 ، ص 33. .

[26] المرجع نفسه ،ج01 ،ص 55.

[27] عبد الرحمن الحاج صالح الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 57 .

[28] الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ،1984 م ، ج 01 ، ص 138-139 .

[29] عبد الرحمن الحاج صالح الخطاب و التخاطب في نظرية الوضع و الاستعمال العربية ، ص 60 .